ابن الاجدابي

للاستاذ الدكتور عبد العزيز برهام
رئيس قسم اللغة العربية

التعريف به : حياته وثقافته :

هو ابراهيم بن اسماعيل بن احمد بن عبد الله ، اللواتي ، الطرابلسي المغربي ، الافريقي ، الملقب بأبي اسحق ، والمعروف بابن الاجدابي، نسبة الى اجدابية ، وهي بلدة على مقربة من بنغازى ، تبعد عنها حوالي ١٦٠ ك. م. جنوباً ، وكان أسلافه ينتمون اليها . اما هو فقد نشأ في طرابلس الغرب ، وأقام بها لم يبرحها حتى توفي ، فدفن بها .

وأول من أشار اليه في الكتب التي بين أيدينا أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي ، في معجم الأدباء (جـ١ ص ١٣٠) ، فقد ذكر اسمه

١ راجع ترجمته في : معجم الادباء حـ١ ص ١٣٠ ومعجم البلدان مادة (اجدّابية) حـ١ ص ١٠٠ ، وفي انباه الرواة حـ١ ص ١٥٨ ، وفي رحلة التجاني ص ٢٦٢ ، وفي (بغية الوعاة) ص ١٧٨ . =

ولقبه ، وشهرته ، ثم قال « له ادب وحفظ ، ولغة وتصانيف . ومن مشاهيرها كتابه « كفاية المتحفظ » ، صغير الحجم ، كثير النفع ، وكتاب « الأنواء » . ثم أشار اليه في معجم البلدان حين تحدث عن اجدابية ، فقال : « كان اديبا فاضلاً . له تصانيف حسنة منها « كفاية المتحفظ » ، وهو مختصر في اللغة مشهور ، مستعمل جيد ،وكتاب الانواء ، وغير ذلك . »

ثم جاء غيره فاعتمد عليه وزاد . ونقل السيوطي في « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ما أورده ياقوت في معجم الأدباء بنصه .

وذكر القفطي الذي كان معاصراً لياقوت — في أنباه الرواة أنه « .. من أهل اللغة ، وممن تصدر في بلده . واشتهر بالعلم . وكانت له يد جيدة في اللغة وتحقيقها ، وافادتها . وهو متأخر . وصنف في اللغة مقدمة لطيفة سماها (كفاية المتحفظ) يشتغل بها الناس في المغرب ومصر . »

هذا ، ويذكر التجاني في رحلته (٧٠٦ — ٧٠٨ ﻫ) ان ابن الاجدابي كان حسن الخط ويقول : « واخبرت ان الأمير ابا زكريا ، رحمه الله ، كان شديد البحث على خطه ، وانه سمع ان كتاب (الفصيح) بيع بخطه في طرابلس ، فبرد بريداً اليها في البحث عنه ، فبحث عنه ، ووجهه إليه » .

ويقول : « وكذلك اخبرت ايضا انه سمع ان بطرابلس كتاب (أمثلة الغريب) لابي الحسن علي بن الحسين الهنائي المعروف بكراع ،

= وفي العصر الحديث في (كشف الظنون) ﺣ٢ ص ٣٩٩ ، وفي (هدية العارفين) ﺣ١ ص ١٠ ، وفي (الاعلام) ﺣ١ ص ٢٥ ، وفي بروكلمان ﺣ١ ص ٨٣ وذيله ﺣ١ ص ٥٤١ وفي مقدمة (الازمنة والأنواء) ص ٢١ وفي مجلة (المجمع العلمي) بدمشق ﺣ ٢ مجلد ٣٣ (اول نيسان ١٩٥٨ — ١١ رمضان ١٣٧٧) ، وفي (اعلام من طرابلس) ص ٩٣ .

بخط الفقيه ابي اسحق ، في ملك بعض (بني النقـــاد) ، وهم من اعيان طرابلس ، فوجه اليه فيها . فوجه (النقاد) بها اليه . وقد وقفت على كتب (النقاد) بوصول الكتاب المذكور ، والشكر له على بعثته [1] .

ثم جاء المؤلفون المحدثون فنقلوا في ترجمة ابن الاجدابي خلاصة ما ذكرناه ، وزادوا عليه زيادات طفيفة ، ولا سيما في مؤلفاته ، كما سنرى .

والذي اجمع عليه المؤلفون ان ابن الاجدابي لم يغادر طرابلس الغرب طوال حياته . أي انه ظل بها يطلب العلم ويدرسه ، ويؤلف فيه . « وقد سئل : انى لك هذا العلم ، ولم ترتحل ؟ فقـــال : اكتسبته من بابي هوارة وزناتة (وهما بابان من ابواب البلد ، نسبا الى من نزل بهما في اول الزمان ، ولا يزالان يعرفـــان حتى اليوم بهذين الاسمين) يشير الى انه انما استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس ، فيدخل من هذين البابين من المشرقيين والمغربيين . وكان له اعتناء بلقاء الوفود ، والقيام بضيافتهم [2] » .

لقد كانت طرابلس في ذلك الزمـــان في طريق الذاهب من المشرق العربي الى المغرب العربي ، ومن المغرب الى المشرق ، فكانت لذلك محط رحال الكثيرين من العلماء الذين يطلبون الرحلـــة . وكانت البلاد الإسلامية اذ ذاك بلداً واحداً أو كالواحد ، فلم تكن حركة انتجاع العلم والرحيل في طلبه ، وحركة الحج الى بيت الله الحرام – تنقطع .

وقد استطاع ابو اسحق ان يغتنم هذه الفرصة ، لتثقيف نفسه . فكان المسافرون من العلماء وغيرهم يضطرون بطبيعة الحال الى ان يقيموا بطرابلس فترة من الزمان ، قد تقصر وقد تطول ، طلبـــا للاستجمام . وفي خلال هذه الفتره يفيضون على الناس من علمهم . فقد كانت طرابلس ، كما

---

١ ص ٢٦٣ – ٢٦٤

٢ رحلة التجاني ص ٣٦٤ .

يقول التجاني ، تغص بالمساجد ، وكانت تقام فيها حلقات الدرس ، واذا كان التجاني قد مر بها بعد عصر ابن الاجدابي بأكثر من قرنين من الزمان ووجدها على هذه الحال ، فقد كانت ، ولا شك ، اكثر ازدهاراً وحركة علمية في الحقبة التي نحن بصدد الكلام عنها .

كذلك نحس مما أورده التجاني في رحلته عن هذه البقاع انه كان بها علماء وفقهاء يدرسون للناس في المساجد .

كما ان حفاوة أبي اسحاق بالوافدين على البلد ، واستضافتهم دليل على انه كان موسعاً عليه في الرزق ، وانه بذلك كان يجد لديه من الوسائل ما يمكنه من طلب العلم ، والافادة منه .

ويقول التجاني :

« وكان الفقيه أبو اسحق هذا من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم ، كلاماً ، وفقهاً ، ونحواً ولغة وعروضاً ، ونظماً ، ونثراً [1] »

« وأخبرني بعض الطلبة ان خط الفقيه أبي اسحاق باق الى الآن في بعض جدر داره من طرابلس ، وهي في وسط البلد ، بمقربة من الجامع الأعظم [2] » .

ويبدو أن العناية بالخط كانت من شيم فريق من العلماء والأدباء . فهذا ابن قتيبة يقول في مقدمة أدب الكاتب : « فأبعد غايات كاتبنا ان يكون حسن الخط ، قويم الحروف [3] » .

أى ان هذه كانت عادة شائعة بين صفوف الادباء . ولكن ذكرها بالصورة التي يعرضها التجاني وتأكيده على هذا الجانب دليل على ان مجيدي الخط في منطقة طرابلس كانوا قلة ان لم يكونوا ندرة .

---

١ رحلة ص ٢٦٢ .

٢ ص ٢٦٤

٣ ص٢ ط محيى الدين عبد الحميد .

وتقول ، مع التجاني : « وكفى بهذا الرجل المعظم القدر فخراً لهذا القطر ، ولم تكن له رحلة عن بلد طرابس الى غيرها[1] » .

تاريخ حياته :

يقول التجاني :

« وزرت هناك قبر الفقيه الامام ابي اسحق ... اللواتي الطرابلسي . وهو قبر معظم ، يكثر الناس زيارته ، والدعاء عنده[2] » .

نعود فنقول ان هذا التعليق يدل على مكانة ابن الاجدابي ، بين مواطنيه ، اذ لا يزالون يختلفون الى قبره « بكثرة » بعد مرور قرنين أو يزيد على وفاته .

هذا ، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ الوفاة ، اذ لم يذكر القدماء شيئاً من هذا التاريخ . اما المحدثون فقد ارجموا بالغيب دون ما تحقيق يذكر . على ان الذي اشار الى تاريخ الوفاة هو الزركلي وبروكلمان لا غير .

يقول الزركلي في كتابه (الاعلام) ان ابن الاجدابي توفي حوالي عام ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) ولم يذكر سواه من المؤلفين العرب اي تاريخ للولادة أو الوفاة .

ولسنا ندري علام اعتمد الزركلي في وضع هذا التاريخ ، لأنه لم يفعل اكثر من ذكره ، كأنه امر مسلم به .

وفي اعتقادنا ان هذا التاريخ بعيد الاحتمال جداً ، لأننا رأينا ان ياقوتاً الحموي قد ذكر (ابن الاجدابي) في كتابيه (معجم الادباء) و (معجم البلدان) ، ولم يشر فيهما الى انه لايزال على قيد الحياة بل

---

١ ص ٢٦٤

٢ ص ٢٦٢ .

بالعكس تكلم عنه كأنه متوفى ، فقـال عنه في معجم البلدان : « كان اديباً ....» ثم جاء (القفطي) ، فتكلم عنه ايضاً ، وقال : « .. وكانت له يد جيدة في اللغة .. وهو متأخر » .

من هذين النصين القديمين نرى ان ابن الاجدابي لم يكن على قيد الحياة حين كتبا . فاذا عرفنا ان ياقوتاً توفي عام ٦٢٦ ﻫ ، وان القفطي توفي عام ٦٤٦ ﻫ دل ذلك على ان ابن الاجدابي لم يعش حتى عـام ٦٥٠ ﻫ ، كما يقول الزركلي .

ولذلك نرى انه توفي قبل ياقوت بزمن .

اما بروكلمان فيقول انه توفي قبل عام ٦٠٠ ﻫ (١٢٠٣ م) .

وهذا ايضا تاريخ بعيد عن الحقبة التي كان يعيش فيها ابن الاجدابي .

على ان التجاني يورد في رحلته حكاية قد تقرب فترة حيـاة ابي اسحق . فقد ذكر ان ابن الاجدابي « حضر يوما بطرابلس عند القاضي ابن هانش فحكم ابو محمد بحكم اخطأ فيه ، فرد عليه الفقيه ابو اسحاق . فقـال له : اسكت يا أحول ، فما استدعيت ، ولا استفتيت » ثم قال التجاني : « وكانت ولاية ابن هانش طرابلس سنة اربع واربعين واربعمائة ، بعد ان فر منها قاضيها محمد بن فاضل البكري الافريقي ، هارباً خوفاً من أهلها . وعزل عنها سنة سبع وسبعين (واربعمائة طبعـاً) فكانت ولايته اثنتين وثلاثين سنة [1] » .

وفي فهرس المخطوطات المصورة (القاهرة) ج ١ ص ٣٦٦ ان ابن الاجدابي من علماء القرن الخامس الهجري . وهذا ما يعزز ما وصلنا اليه .

ومعنى هذا ان ابن الأجدابي كان يعيش في منتصف القرن الخامس الهجرى . وليس بين أيدينا حتى الآن ما يمكن ان نتخذ منه سنداً نحدد به تاريخ حياة أبي اسحق اكثر من هذا .

---

١ ص ٢٦٣ .

ويبدو ان الدكتور (عزة حسن) الذى نشر كتاب (الازمنة والانواء) لم يهتد الى تاريخ حياة ابن الاجدابي ، بل انه لم يحاول ان يحققه ، فقد اكتفى بما ذكره الزركلي ، فقال : « وتوفي هناك أيضاً حوالي سنة ٦٥٠ هـ »[1] . أما التاريخ الذى ذكر على غلاف الكتاب وهو ٩٥٠ هـ . فهو بلا شك خطأ مطبعي ، حدث سهواً .

مؤلفاته :

من هذا العرض الذى بسطناه ، ومما ذكره المؤلفون الذين أشرنا اليهم نرى ان ابن الاجدابي ألف :

١ – كفاية المتحفظ : ونهاية المتلفظ في اللغة العربية :

وهو بحث في اللغة سنتحدث عنه بالتفصيل بعد قليل . وقد طبع في القاهرة عام ١٢٨٧ هـ ثم عام ١٣٢٣ هـ ، وفي بيروت عام ١٣٠٥ هـ ، وفي حلب عام ١٣٤٣ مع كتابين آخرين في اللغة .

ولكن هذا الكتيب توجد منه مخطوطات عدة ، موزعة بين مكتبات العالم ، ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب وفي ذيله اكثرها .

برلين ٧٠٤٣ – جوته ٠٤٢٣ المتحف البريطاني ١٠١٠(٢) – جار الله رقم ١٦٧ (استنبول) ، ٢٧١ – الاسكندرية (فنون) ١٨٨ / ٩ – باتنا (الهند) جـ١ ص ١٨٨ رقم ١٧٠٥ كمبردج ٩٣٥ – فينا ٨٧ – لننجراد .

باريس ٤٢٥٣ – الجزائر ١٨٤١ رقم ١٠ – لاكلي و (استنبول) ٣٧٤٠ رقم ٨ – شهيد علي (استنبول) رقم ٢٦٦٧ – دار الكتب

---

١ ص ٢١ .

(القاهرة) فهرس ط ثانية جـ ٢ ص ٣١ — رامفور (الهند) جـ ١ ص ٥١٤ رقم ٦٣ ورقم ٦٤ .

وفي فهرس المخطوطات المصورة (القاهرة) جـ ١ ص ٣٦٦ أن هناك في بلدية الاسكندرية نسخة خطية رقم ٣٦٤٨ — ١١٠ ق ٣٣×١٦ سم — وهي نسخة كتبت في القرن الثاني عشر . وان هنـــاك نسخة اخرى في كوبريللي ١٣٢٥/٢ ٢٧٠ ق ١٦×٢٣ سم . كتبت في سنة ٦٣٠ هـ . بخط جميل واضح مشكول .

وقد علمت ان فهرس مكتبة (الاوقاف) بطرابلس يذكر وجـــود نسخة خطية بها .

هذا وقد لقي « كفاية المتحفظ » من العناية الشيء الكثير ، فقــد شرح ، ونظم ، واختصر .

شرحه :

شرحه عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي،المغربي . ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصريـــة ، فهرس ط ثانية جـ ٢ ص ٦٦٨٩ ويسمى كتابه هذا « تجريد الرواية في تحقيق الكناية » .

نظمه :

وقد نظم « كفاية المتحفظ » غير واحد .

فنظمه قديماً حمد بن أحمد بن عبدالله الطبرى،جمال الدين[1] المتوفى عام ٦٩٤

١ يذكر علي الفقيه حسن في بحثه الذي اشرنا اليه ان اسمه شهاب الدين، وانه توفي عام ٩٦٣ هـ ولا ندري من اين استقى معلوماته هذه .

و (١٢٩٤) كما يقول بروكلمان ، بعنوان « عمدة المتلفظ » . وتوجد منه مخطوطات في فيينا برقم ٨٨ وفي بردسة (تركيا) برقم اديبات رقم ١٠٤ .

وقد أشار اليه حاجي خليفة رقم ٨٣٥١ بعنوان « عمدة المتلفظ في نظم كفاية المتحفظ » وذكر ان منه نسخاً أخرى مخطوطة في برلين ٧/٩٧٤ وفي ميونخ ٥١ ، وأصفية (هند) جـ١ ص ٣٠٢ . وقال انه نظمه للملك المظفر يوسف بن عمر . وذكر ان اسم الناظم هو محمد بن احمد « بن جابر الأعمى » الطبري المتوفى سنة (ولم يذكر السنة [1]) .

ويبدو ان الأمر قد اختلط على السيد علي الفقيه حسن ، فقد ذكر انه نظم مرتين : مرة قام بها القاضي شهاب الدين ابو عبد الله محمد بن احمد (الحولي) المتوفي سنة ٦٩٣ هـ ، ومرة قام بها ابن جابر محمد ابن احمد الأعمى الاندلسي، وفرغ منها سنة سبع وسبعين وسبعمائة . ولم يذكر لنا من أين استقى معلوماته هذه . ويخيل الينا ان هذين الشخصين شخص واحد هو . الذي ذكره بروكلمان وأتم اسمه حاجي خليفة . ولفظة الحولي وهم وهي الطبري .

وذكر الاستاذ على المصراتي ان الكتاب نظم « في ألف وثلمائة بيت ، ليسهل حفظه ، ولكنه (أي الناظم) خلط حيناً ، وغلط حيناً [2] » .

وقد سمعت من الاستاذ المصراتي ان لديه مخطوطاً من كفاية المتحفظ المنظوم . ولم اعرف منه ان كان هذا المخطوط هو ما اشرنا اليه هنا او انه شيء آخر .

---

١ راجع كشف الظنون ط استنبول جـ٢ ص ١١٧١ و ط ١٣١٠ حسن حلمي الكتبي جـ٢ ص ١٣٥ .

٢ ص ٩٣ من « اعلام من طرابلس » .

ونظمه حديثا الشاعر احمد حسن الفقيه من طرابلس . وممـــا قاله في « الباب الاول » « باب صفات الرجل المحمودة » :

يلقب « السخي » با « لجـــواد »
و « الخرق » من « يُحسن للعباد »
كذا الفتى « إن اكثر العطايا »
يدعونه « الخِضَمّ » في البرايـــا
و « الخِضْرِمُ » : « المكثر للانفاق »
عـــلى المساكين ذوي الامـــلاق
و « الأريحي » « المرتاح للعطاء »
ثم « الحسيب » « الطيب الآباء »
و «الماجد» «الشريف» و « الصِّنديد »
رئيس قـــوم « رأيـــه سديد »
كذلك « الهـــمام » كالصنديـــد
« للرئِّس العظـــيم » والشديـــد
« سَمَيْذَع » جاء من « الجَحْجاح »
« لسيد القوم » هما ، يا صاح
وقل ، خليلي ، « للبيب العاقل »
« أريبُ » و « الوقورُ » « للحُلاحِل
من « جرب الامور » بالتدريب
لقبـــه « بالمنَجِّـــد » الأريب
و « مِدْرَه » القوم هو « المقدَّم »
وهو « لسان حالهم » وهو الفـَم

وقـل لمن كـــان ذكي القلب

يا « لَوذَعِي » يا فريدَ الصحبِ

ومَن « لسانه بليغٌ » : « مِصْقَعٍ »

أمـــا « السَّريّ » قدره مرتفع

و « اجمعه » يا صاح على « سَراة »

بفتـــح سين جـــاء بالاثبـــات

مختصره :

ولكفاية المتحفظ مختصر قام به اسحاق بن ابراهيم بن احمد الطرابلسي . ومنه مخطوط في كوبريللي (استنبول) رقم ١٥٦١ .

٢ – الأزمنة والأنواء :

وقد نشره الدكتور عزة حسن ، وقد طبعته وزاره الثقافة والارشاد القومي بسوريا عام ١٩٦٤ طبعة أنيقة تقع في ٢٣٠ صفحـــة من القطع المتوسط ، وبـــه مقدمة عن الأنواء عند العرب في الجاهلية وأخرى عن الأنواء عند العرب في الاسلام ثم تعريف موجز جداً بالمؤلف .

ويقول الناشر إنه وقف على « نسخة مخطوطة فريدة . بين مخطوطات الشيخ اسماعيل صائب سنجر ، المحفوظة الآن في مكتبة كليـــة البنات في جامعة انقرة . وهي ضمن مجموع صغير ، عدد أوراقه ٩٤ ورقة تشغل منها الأوراق ٥٢ – ٩١ ، ولا أخت لهذه النسخة في العالم فيما نعلم » . ثم يقول :

« وهي نسخة جَيدة ، على وجه العموم ، بالرغم من كثرة التصحيف ، وشيوع الغلط فيها . وقد كتبت في حلب سنة ٧٤٢ هـ بخط معتـــاد ،

مشكول بعض الشكل ، ورسمت فيها الأبواب بالحمرة ، وبحرف اكبر . قياسها ١٣١/١٨ ومسطرتها ١٩ سطراً [١] »

وقد صور الناشر في صدر الكتاب الصفحات الأولى منه (٥١ ب – ٥٢)، وفيها اسم الكتاب ، واسم مؤلفه ، ثم (٥٢ ب – ٥٣ أ) ، وهو أول الكتاب ، ثم (٥٩ ب – ٦٠ أ) وفيه بعض ثغرات ، واخيراً (٩٠ ب – ٩١ أ) وهو آخر الكتاب ، وفيه :

« علقه لنفسه ، ولمن شاء الله تعالى بعده ، أضعف عباده ، وأحوجهم إلى عفوه ، أحمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن التيزي ، ثم الحلبي الشافعي ، حامداً الله تعالى ... ... وذلك في سَلْخ رجب الفرد من سنة اثنتين واربعين وسبعمائة ، بمسجد لله تعالى عرف بالزجاجين بحلب المحروسة ، رحم الله منشئه ... »

وهذان الكتابان هما المطبوعان . اما غيرهما مما سنذكره فقد وردت اسماؤها في تضاعيف الكتب ، ولم يعثر على شيء منها بعد . ولكن التجاني (ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد) يذكر في رحلته انه ذهب الى طرابلس وزار فيها قبر الفقيه ابن الاجدابي ثم عرض لمؤلفاته . وقد ذكر اكثر المؤلفات المفقودة الآن . ويبدو من وصفه لها انه رآها أو رأى بعضها على الاقل أي انها كانت لا تزال موجودة في عصره .

فمن جملة هذه التآليف :

١ – كتابه في العروض .

ويقول عنه التجاني « وناهيك به حسناً وترتيباً ، وتهذيباً . وهو نسختان صغرى وكبرى . »

---

١ ص ٢٣ .

أي أنه صنع كتاباً مطولاً في العروض ثم اختصره في كتاب آخر .

٢ – كتابه في الرد على (أبي حفص) ابن مكي ، في تثقيف اللسان .

٣ – كتاب في شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء ، وبيان اعتلال هذه الياء ، على اختلاف أحوالها : من تصغير وتكسير ، وغير ذلك .

ولما استوفى فيه ذلك الكلام استيفاء جميلاً تعرض لشرح المقاطع الواقعة في سورة مريم[1] ، لاشتمالها على كثير من تلك الأحكام ، فجاء هذا التأليف في غاية الافادة والتحقيق[2] .

٤ – رسالة تعرف باسم « الحَوَل » تعرب عن أدب كبير ، وعلم غزير .

ويذكر التجاني سبباً لهذه الرسالة الصدام الذي حدث بين ابن الأجدابي وبين القاضي ابن هانش ، والذي أشرنا اليه من قبل .

٥ – كتاب اختصر فيه كتاب « أنساب قريش » تأليف ابن عبدالله الزبير بن أبي بكر بن عبد بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ابن العوام .

يقول التجاني : وحسبك بهذا التأليف الجليل علماً وفائدة . وهو كما كان الشيخ أبو الحسن علي بن مغيث رحمه الله يقول : « هو كتاب

---

١ من مثل قوله تعالى :

« قال : اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا . وجعلني مباركا اينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا. والسلام علي يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا .

٢ الرحلة ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

عجب لا كتاب نسب » .

« ورأيت الفقيه أبا اسحق قد أدخل من حفظه في نفس هذا المختصر زوائد ، تشتمل على فوائد ، نبه عليها [1] » .

(وبعد) فبين أيدينا كتاباه المنشوران – كفاية المتحفظ والأزمنة والانواء .

سنتكلم عن كل منهما كلمة نقف منها على مكانة ابن الاجدابي اللغوية ومدى تضلعه في علوم العربية .

أولا – كفاية المتحفظ ، ونهاية المتلفظ

لقد ذكرنا من قبل ثبتاً بالنسخ الموجودة من هذا الكتاب مخطوطة ومطبوعة ، ولا تزال هناك نسخ مخطوطة بلا شك لم نهتد اليها .

والذي يسترعي النظر ان هذا المؤلف على صغر حجمه ، قد وجدت منه مخطوطات متعددة ، متناثرة في شتى مكتبات العالم . وهذا يدل على مقدار العناية والاهتمام به . والحرص على اقتنائه ، حتى نسخه الكثيرون .

وبين ايدينا نسختان منه ، احداهما المطبوعة بالقاهرة ، عام ١٣٢٣ ه ، ويبلغ عدد صفحاتها ٥٤ صفحة من القطع الصغير ، والاخرى المطبوعة في المطبعة العلمية في حلب عام ١٣٤٣ ه . ولم يذكر اسم الذي اشرف على ضبطها . ولكنها موجودة في مجموعة مؤلفة من ثلاث رسائل هي احداها . والرسالتان الأخريان هما «مختصر الوجوه في اللغة» لأبي عبد الله

١ الرحلة ص ٢٦٤ .

الخوارزمي ، و « كتاب المذكر والمؤنث » لأبي زكريا الفراء « وكلاهما كتب على غلافه » عني بتصحيحه والتعليق عليه مصطفى احمد الزرقا » . ولسنا ندري ان كان هو الذي اشرف ايضاً على « كفاية المتخفظ » أو اشرف عليه غيره ، ولم يذكر اسمه ، ثم جمعت الرسائل في مجلد واحد .

على ان « الشركة الخيرية لاحياء الكتب العربية » التي اشرفت على طبع الكتاب تقول في مقدمة المجموعة . « وقد جعلت فاتحة أعمالها المباشرة طبع ثلاث كتب من نفائس كتب اللغة ، ظفرت بها في مجموع في (المدرسة الاحمدية) بحلب ، أولها « كفاية المتحفظ » تأليف الامام أبي اسحق ، ابراهيم بن اسماعيل بن احمد بن عبد الله ، الطرابلسي ، الأديب المعروف « بابن الأجدابي » . وهو محرر بخط اسماعيل بن محمود ابن آدم الغزنوي ، الحنفي ، الشهير . فرغ من كتابته سنة ٥٧٨ ه . والكتاب على نسق « فقه اللغة » للثعالبي وتجد فيه طرائف اللغة وفوائدها التي يحتاج اليها الكاتب مما لا تجده في غيره » .

وقد أشرنا من قبل الى ان هذه المقدمة ذكرت ان عماد الدين أبو الفداء البعلي (ت ٧٦٤ ه) قد نظمه . وقالت : « وقد كان طبع في بيروت سنة ١٣٠٥ ه إلا أن النسخة نفدت من سنين ، وبما ان موضوعه مرتبط بموضوع الكتابين الآخرين أعدنا طبعه ثانية معهما [1] » .

وتقع نسخة حلب في ٧١ صفحة من القطع المتوسط . وتكاد كلماتها تكون مشكلة كلها . وقد عارضنا « بابٌ في المحال والأبنية » منه على القاموس المحيط للفيروزبادي فوجدناه مضبوطاً ضبطاً صحيحاً ، إلا أن هناك أحياناً اقتصاراً في الضبط على لغة دون اللغات الأخرى . من ذلك مثلاً لفظة « أُس » فقد ضبطت بالضم ، وقال الفيروزبادي انها مثلثة ،

---

١ ص (ب وح) .

أو اختلافاً في التفسير (وهذا يرجع طبعاً للمؤلف) . فقد ذكر ابن الأجدابي ان معناها « ما بقي من الرماد بين الأثافي » وذكر الفيروزبادي ان معناها « أصل البناء كالأساس » . والمعنيان متباعدان .

كذلك « النُّؤى » فقد ضبطت بضم النون ، وذكرها الفيروزبادي مثلثة . وقال ابن الاجدابي في معناها » حاجز من رمل يحاط به البيت ليمنع المطر » ، وقال الفيروزبادي « الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل » . والتفسيران مختلفان ، وان كانت الغاية واحدة .

والكتاب ، رغم انه طبع عدة مرات نادر الوجود ، لأنه مرتب بطريقة تجعل كلاً من الشاعر والأديب يحرص على اقتنائه ، لأنه يذكر الألفاظ الدالة على شيء ما ، اسماً أو صفة ، ويبين ما بينها من فوارق تهم كلاً منهما .

وفي عصرنا الحاضر يكون هذا النوع من التأليف ضرورة لازمة للمترجم فكثيراً ما تَنِد عن باله اللفظة العربية التي تقابل لفظة أجنبية ينقلها الى العربية ، فيكون مثل هذا الكتاب خير معين له في العثور على اللفظ العربي المناسب . كما يحتاج اليه المنقبون من رجال المجامع ، الباحثون عن ألفاظ قديمة لمسميات حديثة .

سبب تأليفه ومنهاجه :

يقول المؤلف في مقدمة كتابه .

« هذا كتاب مختصر في اللغة ، وما يحتاج اليه من غريب الكلام . أودعناه كثيراً من الأسماء والصفات ، وجنبناه حوشي الألفاظ واللغات ، وأعريناه من الشواهد ، ليسهل حفظه ويقرب تناوله ، وجعلناه مغنياً لمن

اقتصد في هذا الفن ومعيناً لمن أراد الاتساع فيه[1] .

في هذه الكلمات القليلة بيّن المؤلف الدوافع التي دفعته الى تأليف كتابه ، والمنهاج الذي اختطه فيه لنفسه ، والسبب في انه جعله مختصراً.

لقد الفه لأهل زمانه الذين يعوزهم التمكن من متن اللغة ، وجمع فيه بين أمرين : أن يكون « مغنياً لمن اقتصد في هذا الفن » ، وان « يكون معيناً لمن اراد الاتساع فيه » . انه يضعه على اول درجة في السلم، ويرسم له طريق الصعود فيه ، ثم يدعه ونفسه .

ولما كان هدفه ان يستفيد منه من ليس له إلمام واسع باللغة ، فقد راعى فيه سهولة المأخذ ، وسهولة العلوق بالذهن ، فجنبه « حوشي الألفاظ » أي غير المستعمل أو القليل الاستعمال ، « الثقيل على السمع واللسان » و « عرّاه من الشواهد » فجعله متناً للغة ، كسائر المتون ، متون المواد ، يحفظ حفظاً ليكون منه زاد للمتعلم .

والحق أن الالفاظ جثث هوامد لا يبعث فيها الحياة الا الاستعمال ، والاستعمال انما يعرف بذكر الشواهد . فهي التي تحدد المعنى الدقيق . وآفة الكثير من معاجمنا هو سرد معاني الألفاظ ، وقد تكون كثيرة كثرة مفرطة دون ذكر الاستعمالات التي وردت فيها هذه الألفاظ . وكثيراً ما يردد مؤلفو المعاجم احتمال اللفظ الواحد لمعان متعددة ، وقد تكون متضاربة ، من غير ان تذكر لنا الأمثلة التي تبين لنا بوضوح سبب هذا الاحتمال . وذكر الشواهد قد لا يجعلنا نتفق مع صاحب المعجم أو مع اللغوي في فهمه . وبذلك يصحح الكثير من الدلالات الخاطئة الشائعة ، والتضارب في الفهم .

حقاً ، ان ذكر الاستعمالات الكثيرة يثقل على المؤلف ، ويزيد من

---

[1] ص٢ .

حجم المؤلَّف ، ولكنه اكثر امانة ودقـة . واذا كان كتاب « كفاية الألفاظ » بدون الشواهد يقع في ٥٤ (أو ٧١ حسب الطبعة) صفحة ، فلم يكن هناك ما يضر لو انه احتوى على الشواهد ، وتضاعف حجمه .

خذ لذلك مثلاً : يقول الفيروزبادي في قاموسه المحيط : الوَضَح (محركة) بياض الصبح ، والقمر ، والبرص ، والغرة ، والتحجيل في القوائم ، ومـاء لبني كلاب ، والشيب ، والدرهم الصحيح ، ومحجة الطريق ، واللبن ، وحلى من الفضة (ج أوضاح) ، والخلخال وصغار الكلأ ... »

ويقول « المُزْن (بالضم) السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ..

ويقول : « المَعْن (بفتح فسكون) ، الطويل والقصير ، والقليل والكثير ، والهين اليسير ، والاقرار بالذل ، والجحود ، والكفر بالنعم ، والاديم ، والماء الظاهر ... »

قرناء ابن الاجدابي (ممن سبقوه أو عاصروه) .

إن هذا النوع من التأليف نشأ منذ فُكر في تدوين اللغة ، فقد بدأ هذا التدوين أول ما بدأ بكتابة رسائل صغيرة في موضوع بعينه تتناوله من نواحيه المختلفة . وكانت هذه الرسائل نواة للمعاجم فيما بعد .

فالأصمعي (ابو سعيد عبد الملك بن قريب) الـذي كان يعيش في القرن الثاني (ت ٢١٦ هـ) كتب رسائل عن اللبأ ، وعن اللبن ، وعن الخيل ، وعن النبات ، وعن خلق الانسان .. الخ . وهنـاك كثير غيره سلكوا مسلكه .

ودافع آخر دفع الى السير في هذا الاتجاه ، والتوسع فيه ، ولكن دون التوقف عند حد التوسع في موضوع بعينه ، بل الأخذ من كل موضوع

بطرف ، على النمط الذي سار عليه (ابن الاجدابي) — هو الرغبة في تزويد الكتاب بأساليب أدبية ولغويه قويمة . وكان ذلك عندما شاع الغلط في الاستعمالات اللغوية ، وقصرت همة المتأدبين عن بلوغ المستوى الأدبى واللغوي الرفيع .

ابن قتيبة :

فهذا (ابن قتيبة) الذي عاش قبل ابن الاجدابي بقرنين من الزمان تقريباً (ت ٢٧٦ هـ) يقول مثل ما يقول (ابو اسحق) ، في سبب تأليفه كتابه « أدب الكاتب » وطريقته فيه ، بعد ان افاض في المقدمة في انصراف الناس عن الادب ، وجهلهم باللغة وبمتنها جهلاً فاحشاً احياناً ، حتى الذين اصطفاهم الخلفاء ليتولوا شئون الديوان :

« فلما ان رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان ، وخشيت ان يذهب رسمه ، ويعفو اثره — جعلت له حظاً من عنايتي ، وجزءاً من تأليفي ، فعملت لمُغْفِل التأديب كتباً خفافاً في المعرفة ، وفي تقويم اللسان واليد ، يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل ، لأنشطه لتحفظه ودراسته إن فاءت به همته ، وأقيد عليه بها ما أضل من المعرفة ، واستظهر له[1] باعداد الآلة لزمان الإدالة[2] أو لقضاء الوَطَر[3] عند تبيّن فضلِ النظر . وأُلحِقُه — مع كلال الحد[4] ، ويُبُس الطينة — بالمرهَفين[5]

١ احتاط له واستوثق .

٢ الاعداد ، تهيئة الشيء لوقت الحاجة . والادالة — وقت رجوع الدولة بعد زوالها .

٣ كل حاجة فيها همة .

٤ تشبيه بالسيف القليل المضاء .

٥ المرهف المرقق الحد . ويقصد الأذكياء ذوي الأفهام .

وادخلُه – وهو الكَوْدَن[1] – في مِضمار العِتاق »[2] ..

ويقول :

« ونستحب له (للكاتب) أن يدعَ في كلامه التَّقْعير[3] والتَّعْقيب[4] .. فهذا وأشباهه كان يستثقل ، والأدب غض ، والزمان زمان ، وأهله يتحلون فيه بالفصاحة ، ويتنافسون في العلم ، ويرونه تلو المقدار في درك ما يطلبون ، وبلوغ ما يؤملون – فكيف به اليوم مع انقلاب الحال ، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « ان ابغضكم إليَّ الثرثارون ، المتفَيْهِقُون ، المتَشَدِّقون ؟؟ »[5]

الهمذاني :

أما (الهمَذانِي) عبد الرحمن بن عيسى (ت ٣٢٠ ﻫ ٩٣٣ م في الغالب) فقد وضع كتابه « الألفاظ الكتابية » في هذا الاتجاه . وينسب الى الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ ﻫ) قوله :

« لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى ، مصنف كتاب الألفاظ ، لأمرت بقطع يده . فسئل عن السبب فقال : جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة ، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ، ورفع عن المتأدبين تعب الدرس ، والحفظ الكثير ، والمطالعة الكثيرة الدائمة[6] » .

---

١ البرذون .

٢ العتيق ، السابق من الخيل .

٣ الانتهاء الى قعر الشيء والذي يتقعر في كلامه هو الذي يأتي بالغريب فيه .

٤ التعمق .

٥ ص١٣ .

٦ مقدمة كتاب الالفاظ في ترجمة عبد الرحمن الهمذاني .

يقول الهمذاني في مقدمة كتابه هـذا عن سبب تأليفه : « ووجدت المتأخـرين في الآلة (آلة الكتابة) قوماً أخطأهم الاتساع في الكـلام ، فهـم متعلقون في مخاطبتهم وكتبهم باللفظة الغريبة ، والحرف الشاذ ، ليتميزوا بذلك عن العامة ، ويرتفعوا عند الأغبياء عـن طبقة الحشو . والخَرَسُ والبَكَمُ أحسنُ من النطق في هـذا المذهب الذي تذهب اليه هذه الطائفة في الخطاب » .

« وألفيت آخرين قد توجهوا بعض التوجه ، وعَلَوْا عن هذه الطبقة، غير انهم يمزجون ألفاظاً يسيرة قد حفظوها من ألفاظ كتاب الرسائـل بألفـاظ كثيرة سخيفة من ألفاظ العامة ، استعانة بها ، وضرورة اليها ، لخفة بضاعتهم . ولا يستطيعون تغيير معنى بغير لفظة ، لضيق وسعهم . فالتكلف والاختلال ظاهران في كتبهم ومحاوراتهم ، ان كانوا يؤلفون بين الدرة والبَعْرة في نظامهم .

« فجمعت في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناساً من الفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التقعير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح ، على مذهب الكتاب وأهل الخطابة، دون مذاهب المتشدقين والمتفاصحين مـن المؤدبين والمتأدبين المتكلفين — البعيدة المرام ، على قربها من الأفهام في كل فن من فنون المخاطبات ، ملتقطة من كتب الرسائل ، وأفواه الرجال ، وعرصات الدواوين، ومحافل الرؤساء، ومتخيرة من بطون الدفاتر ، ومصنفات العلماء » .

ثم يبين الغاية من هذا كله ، فيقول :

« فليست لفظة منها إلا وهي تنوب عن أختها في موضعها من الكتابة أو تقـوم مقامها في المحاورة ، إما بمشاكلة أو بمجانسة أو بمجاورة فاذا عرفها العارف بها وبأماكنها التي توضع فيها كانت له مادة قوية ، وعوناً ظهيراً . »

فالهمذاني اذاً يهدف من وضع كتابه هـذا أن يزود الكتاب بألفاظ وتراكيب مترادفة أو تؤدي معنى متقارباً يستطيعون أن يستعملوها ، حتى لا تضيق بهم السبل عند الكتابة ، وخصوصاً اذا كانوا يريدون الكتابـة بصور مختلفة في موضوع بعينه كالتهنئة أو التعويذ أو الوعد أو غيرها .

فيقول مثلاً « باب الارشاد » :

« يقال – أرشدت الرجل إلى الرأي وغيره إرشاداً ، وهديته هداية، ودللته دلالة ، وأدللته عليه إدْلالاً .

« وهديت الرجل في الدين هدىً ، وفي الطريق والرأي هِـدايـة ...

وسدَّدته تسديداً ، ووقَّفته توقيفاً ، وعرَّفته تعريفاً ، وعلَّمته تعليماً ، وبصَّرته تبصيراً ، وثقَّفته تثقيفاً ، وفهَّمته تفهيماً ، وأفهمته ، وبيَّنته له وقوَّمته تقويماً ، وأيَّدته تأييداً بالرأي » .

هذا هو لون المعالجة التي عالج بها (الهمذاني) متن اللغة . انـه لم يشرح أو يوضح منها شيئاً . بل اكتفى بسرد ما تراءى له أنه مترادفات سرداً ، ونسي أو تناسي الفوارق الدقيقة التي توجد بين الالفـاظ التي ظاهرها الترادف ، وليست في حقيقة الأمر كذلك . فهنـاك مثلاً فرق بين علم وعرف ، وفرق بين ثقف وعلم ، وبين هداه ودلّه وبين سدده ووقفه على كذا ...

ولكنه حقق الهدف الذي من اجله ألف الكتاب وجمع امام الكاتب أو الخطيب أو الشاعر ... الألفـاظ التي تؤدي (في اعتقاده) معنى واحداً أو معاني متقاربه . وليس كذلك عمل (ابن الاجدابي) ، فهو اكثر دقة .

الثعالبي :

اما ابو منصور الثعـالبي (ت ٤٢٩ هـ) الذي كان معاصراً لابـي

اسحق أو عاش قبله بفترة وجيزة ، فقد انتحى في كتابه « فقه اللغة وسر العربية » نحواً آخر يختلف عما سبقه ، ينم عنه الاسم الذي اختاره لكتابه نفسه . وطريقته التي اتبعها هي الطريقة التي سار عليها ابن الاجدابي . ولكن كتاب الثعالبي كان أعم ، واكثر تنوعاً ، وأغزر مادة ، واكبر حجماً . فهو يصل الى ٤٧٥ ص من القطع الصغير . وقد ختمه بذكر بعض موضوعات في اللغة ، غاية في الدقة ، ومنها ما يدخل في « فن البديع » من الكلام ، فتكلم عن معنى الاستعارة ، لغة واصطلاحاً ، وضرب الامثلة لها ، وعن التجنيس ، وعن الطباق : وفي الالتفات والحشو ... وجارى في ذلك ما كان شائعاً في عصره عن هذه المناحي . ويبلغ هذا الملحق نحواً من ١٢٥ ص .

ونحن لا نستطيع أن نجزم أي الاثنين كان أسبق في التأليف من الآخر : الثعالبي أو ابن الاجدابي . وان كان الثابت أن الثعالبي مات في اوائل الربع الثاني من القرن الخامس على حين ان ابن الاجدابي كان لا يزال على قيد الحياة . وقد حدثت بينه وبين ابن عايش القصة التي اوردناها ، ولسنا ندري متى حدثت على وجه التحقيق ، وكم من الزمن عاش بعدها .

وعلى اية حال فان كتاب الثعالبي كان قد عرف واشتهر قبل وفاته . وهو لم يحدد لنا متى ألفه . وهل كان ذلك في اواخر ايامه أو في أوائلها . وان كانت المقدمة تنم عن انه حين ألفه كان لا يزال في صحة تامة ، فهو لم يشك في عمله كلالاً ، ولا أظهر في عزلته التي اختارها لنفسه لكي يؤلفه تبرماً . كل ما صدر عنه من شكوى ان هذه العزلة طالت ، فحرمته من مجالس ولي الفضل عليه ، عبيد الله بن أحمد الميكالي ، الذي اشار عليه بتأليفه ، ورسم معه خطة العمل .

فهو اذاً قد ألف في اواخر القرن الرابع أو اوائل القرن الخامس أي

قبل ان يؤلف ابن الاجدابي – فيما يبدو – كتابه بفترة كافية . بقي أن ندلل على وصول كتاب الثعالبي الى يد ابي اسحق أو عدم وصوله . وهذا أمر تعوزنا عليه الادلة حتى الآن . ان صاحب « فقه اللغة » قدم لكتابه بمقدمة طويلة أوضحت سيرته ، وأبان في هذه المقدمة عن المصادر التي استقى منها « المتن » الذي وضعه بين أيدينا . اما ابن الاجدابي فلم تزد مقدمة كتابه عن بضعة اسطر غاية في الايجاز ايضاً ، كايجازه في متن الكتاب .

واذا كانت الطريقة التي سلكها كل من الثعالبي وابن الأجدابي واحدة ، فان هناك كذلك تشابهاً بينهما في الدقة البالغة التي اتسمت بها مادتاهما ، كما سنرى من الامثلة التي سنختارها لكل منهما .

ويعترف الثعالبي أنه أخذ مادة كتابه عن كتب الأئمة السابقين له ، من امثال الخليل بن احمد ، والاصمعي ، وابي عمرو الشيباني ، والكسائي ، والأزهري .. ومن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء ، الى اتقان العلماء ، ووعورة اللغة الى سهولة البلاغة [١] »

ويحدثنا في مقدمة كتابه حديثاً طويلاً عن سبب تأليفه ، وان الذي دفع به الى هذا المجال هو الأمير ابو الفضل عبيد الله بن احمد الميكالي . وهو الذي رسم له الطريق الذي يسير عليه ، وان مجلسه « كانت تجري فيه نكت من أقاويل ائمة الأدب في أسرار اللغة ، وجوامعها ، لطائفها وخصائصها ، مما لم ينتبهوا لجمع شمله ، ولم يتوصلوا الى نظم عقده . وانما اتجهت لهم في اثنـاء التأليفات ، وتضاعيف التصنيفات لمع يسيرة كالتوقيعات ، وفقر خفيفة كالاشارات ، فيلوح لأبي منصور « بالبحث عن أمثالها ، وتحصيل اخواتها ، وتذييل مـا يتصل بها ، وينخرط في

---

١ ص ١٦ – ١٧ .

سلكها ، وكسر دفتر جامع عليها ، واعطائها من النيقة [1] »

وقد قسم الثعالبي كتابه الى ثلاثين باباً ، يضم كل منها عدة فصول، ويمتاز بأنه ينسب أحياناً كل معنى الى قائله أو قائليه .

يقول مثلاً في الثياب :

« عن أبي عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، والليث : كل ثوب من قطن فهو سَحْل . كل ثوب من الأبريسم فهو حرير . كل ما يلي الجسد من الثياب فهو شِعار ، وكل ما يلي الشعار فهو دِثار. كل ملاءة لم تكن لِفْقَين (قطعتين متضامتين) فهي رَيْطَة . كل ثوب يبتذل فهو مِبْذَلة ومِعْوز . كل شيء أودعته الثياب من جُوَقة أو تَخْت أو سَفَط فهو صُوان وصِيان . كل ما وقى شيئاً فهو وقاء له [2] »

ويقول أبو اسحق في باب « اللباس » :

« السَّب هو الثوب الرقيق . والبُرْد المسهَّم هو المخطَّط . والمُفَوف الذي فيه نقوش . والسَّحْل الثوب الرقيق من القطن . والشَّف الثوب الرقيق يُظهر ما خلفه . والسابِري مثله .

« الحصيف من الثياب الكثيف الساتر . والأتْحَمِيَّة برود منسوبة إلى أتْحَم ، من أرض اليمن . والمَجاسِد الثياب الحمر واحدها مُجْسَد .

والمُعَصْفَر المصبوغ بصُفْرة خفيفة . والمُفَدَّم المشبَّع بالصبغ . والسَّرَق شقاق الحرير الواحدة سَرَقَة .. الخ .

١ ص ١٣ — النيقة اسم من تنيق أي تجود وبالغ .

٢ ص ٣٥ .

هذا ، وقد ذكر الثعالبي في مواضع اخرى من كتابه كثيراً من الأسماء التي أوردها ابن الاجدابي في الثياب . وقس على ذلك سائر الأبواب .

مادة كتاب ابن الاجدابي

كفاية المتحفظ :

الكتاب مصنف أبواباً عدتها واحد وخمسون باباً . منها الطويل الذي يستغرق صفحتين ، ومنها القصير الذي لا يجاوز بضعة أسطر .

والمتتبع لسير هذه الأبواب يجد أن منها أحد عشر باباً تتحدث عن الرجل والمرأة ، عن الصفات المحمودة عند كل منهما ، والصفات المذمومة. ثم عن الألقاب التي يلقب بها الرجل في صلته بالنساء ، وأسماء الحلى التي تتحلى بها النساء ، وعما يحتاج اليه من معرفة خلق الانسان ، ثم ألقاب الانسان في أطوار حياته ، رجلاً كان أو امرأة ، والصفات الخِلْقية في كل منهما .

وستة ابواب في الابل والخيل ، في ألوانها وسيرها ، وألقابها ...

وثمانية أبواب في الحرب والسلاح : في اسماء الحرب ، وفي السلاح ، محموده ومذمومه ، وأجزاء السيف ، والرماح والسهام ، والدروع والبيض.

وسبعة أبواب في الحيوان : في السباع والوحش ، وفي الظباء ، وفي البقر الوحشية ، وفي الحمير الوحشية ، وفي النعام ، وفي الطير ، ثم في النحل والجراد والهوام ، وصغار الدواب .

وثلاثة أبواب في الفيافي والجبال : في نعوت القفار والأرضين ، وفي الرمال وفي الجبال ، والأماكن المرتفعة ، والأحجار وما شاكلها .

وباب في المحال والابنية .

وأربعة أبواب في مظاهر الطبيعة : في الريـاح وفي السحاب وفي المطر ، وفي السيول والمياه .

وأربعـة أبواب في النبات : في النبات وفي الزهر ، وفي الكروم ، وفي النخل . وخمسة أبواب في الطعام والشراب : في الاطعمة وفي انواع الأكل . وفي الأشربة وفي اللبن وفي العسل ، وفي أسماء الخمر .

وباب في الآنية .

وبابان في اللباس . وباب في الطيب ، وآخر في الآلات وما شاكلها .

والمتتبع للمادة التي أوردها ابن الاجدابي في هذا الكتاب الصغير يدرك سعة اطلاعه ، ومبلغ دقته ، وبصره بالفوارق اللغوية الدقيقة بين المسميات واسمائها ، ولا كذلك الهمذاني . كما يدرك مبلغ الثروة الهائلة التي تتمتع بها اللغـة العربية ، ومبلغ الدقة البالغة في اختيار الألفاظ ، وانها تستحق ما قاله عنها شاعر النيل ، حافظ ابراهيم .

وسِعت كتاب الله لفظاً وغاية   وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق آيات لمخترعات ؟

كذلك يبين لنا ان كثيراً من الألفاظ اللغوية التي نظن اليوم انهـا مترادفة هي في حقيقة وضعها ليست كذلك . هي ألفاظ متقاربة الدلالة في الوضع ثم تنوسى هذا التقارب لبعدها عن نقطة انطلاقها ، فظن انها مترادفة . ولو عملنا على تجلية هذه الفوارق ، وانصرفت اليه مجامعنا اللغوية بهمة لوجدنا أنفسنا امام لغة غاية في الدقة والتحديد ، وهـو ما ينقص

لغتنا اليوم . ولو اننا أعدنا النظر في معاجمنا ، في ضوء النصوص الواردة عن العرب ، لنحينا كثيراً من المعاني المتأرجحة ، و « العائمة » ولأزلنا من معاجمنا ، ومن شروح آدابنا كثيراً من صور الشك والتردد والابهام .

هذا مثلاً باب يتحدث فيه المؤلف ، عن اجزاء جسم الانسان ، فيقول :

الأسنان : أسنان الانسان اثنتان وثلاثون سناً ، اربع ثنايا ، وأربع رباعيات ، وأربعة أنياب ، وأربعة ضواحك ، واثنتا عشرة رَحىً ، ثلاث من كل جانب ، ثم اربعة نواجذ ، وهي اقصاها . فقالوا ، والناجذ ضرس الحلم . والنواجذ والأرجاء هي الأضراس .

فاذا سقطت أسنان الصبي قيل – قد ثُغِر الصبي ، فهو مثغور . فاذا نبت قيل قد اتَّغَر واثَّغَر (بالتاء والثاء مع التشديد فيهما) .

واللسان يذكر ويؤنث ، وجمعه إذا ذكِّر ألسنة ، فاذا أُنث فالجمع ألسُن . « وعَكَدَة اللسان أصله . والصُّرَدان العِرقان المستبطنان له .

ثم يتحدث عن غير الفم والاسنان فيقول :

« والجيد العنق ، وهو التَّليل ، والهادي ، والطُّلْيَة ، والجمع طُلىً .

والأخدعان عِرقان في موضع المَحْجَمَتَيْن .

والوريد عرق في العنق يتصل بالقلب .

والأوداج العروق التي يقطعها الذابح من الشاة ، واحدها وَدَج .

واللغاديد : لحم باطن الحلق ، مما يلي الأذن .

والقَصَرة أصل العنق .

والضَّبُع العضد .

والمأبِض باطن المِرفق . وهو باطن الركبة ايضاً .

والنواشِر عروق باطِن الذراع . وكذلك الرّواهِش أيضاً . وقيل النّواشِر عروق ظاهر الذراع . والرّواهِش عروق باطنها .

والمِعْصَم موضِع السِّوار .

والزّنْد طرف الذراع الذي انحسر عنه اللحم ، فرأسه الذي انحسر عنه الخِنْصر هو الكُرْسُوع ، ورأسه الذي يلي الابهام هو الكوع .

والراحة الكف . وفيها الاصابع . وهي الإبهام ثم السبابة ثم الوسطى ثم البِنْصر ثم الخِنْصر . وكذلك أسماؤها في الرِّجْل ايضاً .

والسُّلاميَات : العظام التي بين كل مَفْصِلين من مفاصل الأصابع .

والرّواجِب بطون السُّلاميَات وظهورها .

والبرَاجِم رؤوس السلاميات من ظَهْرِ الكف ، وهي ظهور مفاصل الأصابع .

والكاهل مقدم الظهر مما يلي العنق ، وهو الكتِد والثبَج .

والصُّلْب من الكاهل الى عَجْبِ الذّنَب .

والمَطا الظّهر ، وهو القَرا ، مقصور أيضاً .

والحَيْزُوم الصدر ، وهو الكَلْكَل ، والبَرْك ، والجَوْشَن ، والجُؤْشُوش .

ويستمر المؤلف بعد ذلك في ذكر بقية أعضاء الجسم ، ثم يذكر ما في الصدر ، وما في الجوف والبطن ...

هذه الدقة المتناهية في ذكر الاسماء التي تدل على اجزاء الجسم ، ظاهرها وباطنها ، تدل على أن المؤلف بذل جهداً محموداً في استخلاص كل هذه الاسماء من ثنايا كتب اللغة ، وكتب الأدب والرسائل ، والمعاجم ، وغيرها ، في صبر وأناة بالغين ، ومعرفة دقيقة بالمسميات نفسها .

إن وجود هذه الاسماء بهذه الدقة يؤيد ما قلناه من ان اللغـة العربية ليست فقيرة ، وانمـا العيب فينـا نحن الذين اهملنا هذا التراث القيم فلم نستفد منه في نهضتنا الحاضرة التي هي في حـاجة ماسة الى كل هذه الالفاظ ومئات غيرها .

ان لدينا نهضة في جميع فروع المعرفة ، وهي محتاجة الى ألفاظ لتدل بها على ما جد من مستحدثات العلوم ، وتراثنـا العربي مليء بالألفاظ التي يمكن أن تفيدنا في هذا المضمار ، وليس علينا الا تجلية هذه الأسماء . اننا نحتاج الى بعض الصبر والمقدرة على ذلك ، ولكننـا واثقون ، اذا اخذنا في الاسباب ، أن نصل الى ما نريده ان لم يكن كله فجله . علينا ان نحيي الكتب القديمة وما جاء فيها من الفاظ ، بدل ان نعيب اللغة ، ونتهمها بالقصور ، والقصور في واقع الامر انما هو فينا نحن ، وبدل ان نسخر من الانماط التي تحت ايدينا لأن ألسنتنا لم تألفها ، فالألفاظ الأجنبية التي نلجـأ اليها لا تقل غرابـة ، بل انهـا تحتاج الى توضيح لمعانيهـا أطول وأعوص .

الأزمنة والأنواء

هذا هو الكتاب الثاني الذي عثر عليه ونشر من كتب (ابن الاجدابي) وقد نشره الدكتور عزة حسن عام ١٩٦٤ ، وتولت الانفاق عليه وزارة الثقافة والإرشاد بسورية « احياء التراث القديم » .

وهو مطبوع طبعاً أنيقاً ، ويقع في ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط ، إذا استبعدنا المقدمات التي ليست للمؤلف ، والمراجع التي رجع اليهـا الناشر .

وقد قدم له الناشر بمقدمة عن « الأنواء عند العرب في الجاهلية » ثم عن « الأنواء عند العرب في الاسلام » ، وأعقب ذلك بالكلام عن الكتاب نفسه فقال « بعد أن أبان أن « العلماء كادوا ينقطعون عن التأليف في الأزمنة والانواء انقطاعاً تاماً مع إطلالة القرن السادس للهجرة» — أن الكتاب « يضم بين دفتيه زبدة علم الأزمنة والأنواء عند العرب في الجاهلية والاسلام ، مضافاً اليها فصول من هذا الفن أخذها العرب من الأمم الأخرى التي اتصلوا بها بعد الاسلام ، وفصول اخرى مستمدة من علوم الهيئة والنجوم التي نشأت عند العرب بعد الاسلام ايضاً ... » ثم قال :

« وقد تبع ابن الاجدابي خطة الايجاز في تأليف كتابه هذا ، فلم يحشر فيه الآراء المختلفة ، والنظريات المتضاربة حشراً ، ولم يأخذها بحذافيرها ، ولم يذكر تفاصيلها الجزئية الدقيقة . وانما ذكر منها الخطوط العامة التي تحيط بالقضايا ، والمسائل الهامة ، وعرض الأفكار الأساسية في الأبواب ، في بساطة ويسر ، وفي لغة نقية سهلة ، بعيدة عن التعقيد العلمي . وكأني به قد قصد من وضع كتابه الى تبسيط فن « الأزمنة والأنواء » وتقريبه من أذهان جمهور القراء في عصره . ولم يقصد به كبار العلماء من ذوي الاختصاص . فكان موفقاً في عرض أبوابه وفصوله في صورة جميلة ، محببة إلى النفوس ، فجاء كتابه لذلك مختصراً لطيفاً ، يمضي فيه القارىء مضياً سهلاً ، دون أن يصطدم فكره بمشكلات العلم الصعبة أو يتعثر في مسالكه البعيدة المجهولة [١] » .

ونزيد أن هذا العمل لا يمكن ان يقوم به الا شخص ملم كل الالمام بتفاصيل الفن الذي يكتب عنه . وتكون اصوله وفروعه واضحة في ذهنه كل الوضوح ، حتى يستطيع أن يعريها من كل الشوائب ويستخلص منها

---

١ ص ١٨ .

الأفكار الأساسية الضرورية ، ويصوغها للقارىء في أسلوب سهل مبسط مستساغ .

والذي يستعرض المادة التي قدمها ابن الأجدابي في كتاب « الأزمنة والأنواء » يجد أن الطابع اللغوي يسودها الى جانب الطابع العلمي ، وان ابا اسحق لم ينسَ ، وهو يكتب في الأنواء ، انه عالم لغوي ، وانه وضع « كفاية المتحفظ » .

فهو مثلاً حين يتكلم عن الشمس حين تطلع وحين تغرب ، وحين تملأ الأفق ، وحين تنتصفه .. الخ ، لايكتفي باعطاء القارىء ما هو في حاجة اليه من هذه البيانات ، بل يقول :

« وللشمس عند العرب اسماء ، منها ذُكاء ، ممدود لا ينصرف ، سميت بذلك لأنها تَذْكُو النار . ولذلك قيل للصبح « ابنُ ذكاء » ، لأنه من ضوئها .

ومن أسمائها ايضاً الغزالة ، وبُوح ، وبَراحِ ، والجَوْنَة . سميت جَوْنَة لشدة بياضها . والجَوْن ايضاً الأسود ، وهو من الأضداد .

ومن اسمائها الإلاهة ، ويقال لاهَة ، بغير ألف ولام . قال الشاعر :

تَرَوَّحْنا من اللَّعْباء قصراً فأعجَلْنا الإلاهةُ أن تئوبا

ولا تسمى الشمس « الغزالة » الا في ارتفاع النهار خاصة . وقد قيل إن الغزالة ارتفاع النهار نفسه . يقال « لقيت فلاناً غزالَةَ الضحى ، ورَأد الضحى أي في وقت مدّ الضحى ، وارتفاع النهار .

ويقال : ذرت الشمس ذُروراً ، وَشَرَقَتْ شروقاً إذا طلعت . فاذا استقلت وخلَص ضوؤها قيل: قد أشرقتْ إشراقاً ، وَبَزَغتْ بزوغاً .

« وقَرْنُ الشمس أولُ ما يبدو منها في الطلوع .

وحواجبها : نواحيها . وآياتها ، وأياؤُها: ضوؤُها وشُعاعها .

« والصبح ما يقع على الأرض من ضوئها ... الخ » .

نحن إذاً امام كتاب لغوي – فلكي . لغوي يتعقب المعنى تعقباً كاملاً أو شبه كامل حتى يجلوه . واذا كان « كفاية المتحفظ » قد عرض لموضوعات شتى في مختلف نواحي الحياة،واستطاع مؤلفه ان يعرض علينا فيه خلاصة ما قيل من اسماء للمسميات التي ذكرها ، فإن كتاب « الأزمنة والأنواء » لا يعرض إلا لناحية واحدة هي موضوعه . ومع ذلك فان ابن الاجدابي قد وفاها حقها اللغوي ، فذكر الأزمنة ، وقسمها الى اقسامها ، وذكر اسم كل قسم منها (الساعة واليوم والشهر والسنة) ، ثم ذكر شهور السنة بالتفصيل وعدد أسماءها وما قيل فيها ، وعلامات الشهور العربية ... واستمر على هذا المنوال حتى آخر الكتاب .

كذلك نحن أمام كتاب أدبي . فالمؤلف كثيراً ما يؤيد كلامه بشواهد من كلام العرب وأشعارهم ، يستدل بها على المعنى الذي قال به .

ونستطيع ان نقول هنا مع ناشر كتاب « الأزمنة والأنواء » إن قيمة الكتاب متعددة الجوانب ، فيها جانب علمي ، وآخر أدبي ، وجانب ثالث لغوي ، ورابع تاريخي .

« وتتجلى قيمته العلمية في بيان ما كان معروفاً عند العرب في العصر الجاهلي من معارف في الأزمنة والأنواء ، ثم في بيان ما كان معروفاً ، ومستعملاً من هذا الفن في البيئة العربية بعد الاسلام الى عصر المؤلف . وكثير من هذه الامور التي أوردها المؤلف في كتابه ما زالت معروفة ومستعملة كذلك في أيامنا هذه ، ولا سيما الأمور التي تتصل بالسنين والشهور وفصول السنة على المذاهب المختلفة .

وقـد أجاد المؤلف حقاً في كلامه عن الشهور السريانية التي كانت شائعة مستعملة في المشرق العربي في عصر المؤلف ، وفي كلامه عما يكون فيها من المواسم الزراعية وغيرها . وما زلنا ، نحن العرب، نستعمل هذه الشهور في المشرق العربي الى اليوم .

« أما من الناحية الادبية ، فالكتاب يفيدنا في فهم كلام العرب الذي ترد فيه أشياء عن الأزمنة والأنواء من اشعارهم ، وأسجاعهم ، وامثالهم في الجاهلية والاسلام . وهي مبذولة ومبثوثة في دواوين الشعراء ، وفي كتب الأدب واللغة .

« هذا الى شواهد الشعر والنثر من كلام العرب التي نثرهـا المؤلف هنا وهناك في ثنايا كتابه مع شرح لألفاظها ، وايضاح لمعانيهـا ، في اغلب الأحايين .

والباب الأخير من الكتاب هو باب معرفة الشهور الشمسية ، وأسمائها عند الأعاجم وما يحدث في كل شهر منها من طلوع المنازل أو سقوطها – معرض حافل بأسجاع العرب التي قالوهـا في الأنواء والأزمنة التي توافق طلوع النجوم الثابتة . وفي هذه الأسجاع جمال ادبي خـاص ، غني بالموسيقا ، ينشأ من رشاقة الألفـاظ ، وايجاز العبارة ، وارنـان السجع . مثل قولهم « إذا طلع الذراع ، كشفت الشمس القناع ، وأشعلت في الأفق الشعاع ، وترقرق السراب بكل قاع » ومثل قولهم « اذا طلع سهيل ، برد الليل ، وخيف السيل ، وكان لأم الحوار [1] الويـل » . ولم يهمل المؤلف شرح ألفاظ هذه الأسجاع ، وايضاح معانيها ايضاً .

« وأما في اللغة ، فالكتاب يفيض بالألفاظ الدائرة في موضوع الأزمنة

---

[1] ولد الناقة ساعة تضعه أو الى أن يفصل عن أمه (ج) أحورة وحيران .

والأنواء كثيراً . ومعظم هذه الألفاظ قد أصبحت من اصطلاحات هذا الفن مع الزمن .

« ومن استقراء هذه الألفاظ في كتب الأزمنة والأنواء التي وصلت الينا وفي كتب اللغة معاً ، ثم من قياس بعضها ببعض بعد ذلك — يمكننا كشف التطور الذي طرأ على مدلولات هذه الألفـــاظ خلال العصور . وسيكون هذا الاستقراء سبيلاً إلى وضع معجم لغوي ، يضم شتات هذه الألفاظ ، كما سيكون هذا المعجم خطوة في سبيل وضع المعجم التاريخي للغة العربية . وما أحوج العرب في نهضتهم الحديثة الى مثل هذا المعجم .

« وللكتاب أخيراً قيمة تاريخية . ذلك أنـــه يفيد الباحثين في مسألة تاريخ العلوم في الحضارة العربية ، ويعتبر مرجعـــاً قيماً ، ووثيقة جيدة في أيدي هؤلاء الباحثين . وهذا الى انه سيمثل منحى من مناحي الفكر العربي في مرحلة فسيحة من مراحل تاريخه الطويل المجيد » [١] .

وبعد : فالكتابان اللذان عـــثر عليهما من تراث (ابن الاجدابي) الفكري يدلان على اصالة في التفكير ، وسعة أفق لغوية ، واطلاع أدبي بعيد المدى ، وقدرة فائقة على تبسيط المادة مع وضوحها .

ولعل الأيام تكشف عن كتبه المفقودة حتى يتكامل بناء الحـــكم على هذه العقلية العلمية الأدبية العميقة .

حقاً ان الكتابين مختصران . و « كفاية المتحفظ » غاية في الاختصار، إذا ما قيس بغيره من الكتب التي عالجت موضوعه . ولكن وضع « المتون » كان أصلاً من أصول التأليف عند العرب ، ولا سيما بعد القرن الرابع ، بسبب تأسيس المدارس في المدن ، وللأسباب الأخرى التي ذكرها المؤلفون في مقدمات كتبهم التي أشرنا اليها .

---

١ ص ١٩ ـ ٢٠ .

كانت هـذه المتون إذاً كالكتب المدرسية في أيامنا . وكانت كذلك زاداً لأوساط الناس الذين كانوا يرغبون في أن يتزودوا بشيء من الثقافة العامة دون أن يتوغلوا فيها . وهذا هو الذي حدا بفريق من المؤلفين إلى أن يضعوا في العلم الواحد كتابين أو ثلاثة : مختصر ومتوسط وطويل . و (ابن الأجدابي) نفسه فعل هذا في فن العروض . فالمختصر لطالبي العلم من التلاميذ ، والمتوسط لأوساط الناس ، والمطول يضم شتات المسائل، ويحيط بأطراف المادة . واذا اقتصر على مؤلفين كان الموجز منهما للطائفتين الأوليين .

مراجع البحث

١ ــ كفاية المتحفظ ، ونهاية المتلفظ لابن الاجدابي

٢ ــ الأزمنة والانواء لابن الأجدابي ــ دمشق ١٩٦٤

٣ ــ رحــلة التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن احمد) ــ تونس ١٩٥٨

٤ ــ أدب الكاتب لابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم) .

٥ ــ فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي .

٦ ــ بغية الوعاة لجلال الدين السيوطي .

٧ ــ الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذاني ط. الاب لويس شيخو .

٨ ــ معجم البلدان لياقوت الحموي (لابي عبد الله ياقوت بن عبد الله) بيروت ــ روائع التراث العربي ــ مكتبة خياط .

٩ ــ معجم الادباء لياقوت الحموي .

١٠ــ الاعلام لخير الدين الزركلي .

١١– كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون لحاجي خليفة (مصطفى ابن عبد الله) .

١٢– اعلام من طرابلس لعلي مصطفى المصراتي .

١٣– انباه الرواة على انباه النحاة لجمال الدين أبي الحسن القفطي (دار الكتب – القاهرة ١٩٥٠) .

١٤– بروكلمان – تاريخ الأدب العربي .

١٥– مجلة المجمع العلمي بدمشق ج٢ مجلد ٣٣

د. عبد العزيز برهام